مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد2، العدد4، (جوان2014)
ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

نظام الدولة المدينة في العراق القديم

الأستاذة :راشي نجوى
جامعة فرحات عباس- سطيف-

تشير النصوص السومرية أنه في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد قامت دويلات متفرقة في مدن مختلفة من جنوب العراق ،ويحكم في كل منها سلالة مستقلة عن جاراتها، وبفعل تطور الكتابة التي أصبحت ملائمة للتدوين ،أخذ ملوك تلك السلالات وأمرائها يصفون حروبهم وأعمالهم ويسجلونها على الألواح الطينية أو الحجرية ...، وبذلك انتقلوا إلى عهد جديد اصطلح عليه بالعصر التاريخي ،وسميت بدايته بعصر دويلات المدن أو عصر فجر السلالات .

1-الدولة المدينة :يعتبر نظام الدولة المدينة قي العراق القديم أقدم نظام دويلات معروف في العالم ، وهو يضاهي نظام الدويلات المدن اليونانية ، الفينيقية..، وترجع جذوره الأولى إلى عصور ما قبل التاريخ ثم تطور في العهد الشبيه بالكتابي ، ووصل إلى درجة النضج والازدهار في عصور فجر السلالات[1].

وتذكر الدراسات التاريخية أن بلاد سومر كانت مقسمة إلى عدة أجزاء ،وكان كل جزء منها يؤلف دويلة مستقلة عن غيرها سياسيا وإداريا واقتصاديا ،ولها نظمها وتقاليدها وعاداتها وقوانينها وسلالتها المستقلة ...،على أن تتركز كل دويلة حول مدينة رئيسية هي العاصمة ،ويتبعها عددا من المدن الصغيرة والقرى وما تضمنته من أراضي زراعية بحكم اعتمادها بالدرجة الأولى على مصدر الماء من خلال شبكة من الجداول والقنوات الاصطناعية [2] ، وتشكلت المدن السومرية في الغالب من ثلاثة أقسام رئيسية :

1-مركز المدينة (قلب المدينة):" "يحيط به سور،و يتضمن القسم الرئيسي منها، فيه المعابد والقصر الملكي ،وبيوت السكن الحضرية .

2-ضواحي المدينة :وتدعى البرانية بالسومرية " " أي خارج المدينة ،وفيها معابد الأعياد الدينية "بيت أكيتو" " " ،ومساكن المزارعين وحظائر الماشية ،وعلى هذا القسم تعتمد المدينة في تغذيتها .

---

[1] محمود شاكر ،موسوعة الحضارات وتاريخ الأمم القديمة والحديثة ،ج1، دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن ،2002، ص31.

[2] عامر سليمان وأحمد مالك الفتيان ،محاضرات في التاريخ القديم (موجز تاريخ العراق ومصر وسوريا وبلاد اليونان القديم)، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ، بغداد ، 1978،ص81.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

3-الميناء ومستودع البضائع: " " بالسومرية ،وهو المركز التجاري للمدينة لاسيما التجارة الخارجية ، ويتمتع ببعض الاستقلال الإداري والقانوني .[1]

ولقد تميزت هذه المدن منذ نشأتها بحدودها وأسوارها *،وأسرتها الحاكمة وإلهها الحامي (الوطني)،ونظمها وقوانينها ،وعرف هذا العصر بعصر القضاة حيث كان الأمر والنهي الذي يحدث داخل المدينة أو التجمع السكاني البسيط يحل من قبل شخص واحد مختار أكثر كفاءة وأكبر سنا من بقية الناس،[2] ويتراوح عدد دول المدن في بلاد سومر في حدود خمس عشر مدينة مستقلة ،ومنها: أريدو(ابو شهرين جنوب غرب الناصرية) ،أور(المقير جنوب غرب الناصرية) ،لارسا (سنكره-شمال غرب الناصرية)،أوروك(الوركاء-شمال غرب لارسا) ،لجش (تلو- جنوب غرب قلعة سكر)،أوما (جوخا-جنوب غرب قلعة سكر) ،شروباك (فاره –شمال الوركاء)، ايسن(ايشان بحريات– جنوب شرق الديوانية)،آداب(بسمانية–شمال أوما)،نيبور(نفر-شمال غرب آداب) ،أكشاك ،بادتيبرا ،كيش(تل الأحمير) ،جرسو نينا[3]،فضلا عن مدينتي أبوسالابيخ ،تل عبيد.[4]

وقد اختلف تعداد السكان من مدينة إلى أخرى ،حيث بلغت نسبة السكان في أولى المدن السومرية ما بين 5000و8000 ساكن ،فمدينة الوركاء مثلا :بلغ عدد السكان فيها 10000نسمة ،ثم ارتفع في سنة 2700ق.م إلى 50000نسمة ، في حين بلغ عدد السكان في مدينة لجش في أوج ازدهارها أكثر من 3500 إلى 40000نسمة[5].

2-عوامل قيام نظام الدولة المدينة : تباينت العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور الدولة المدينة في بلاد سومر ،والإنفراد بالزعامة السياسية على جميع الشعوب ولعّل من أهمها :

---

[1] سامي ريحانا،تاريخ الحضارات "شعوب الشرق الأدنى القديم " ، نوبليس ،ص ص 68-69.

*يبلغ طول السور المحيط بمدينة أوروك (الوركاء) تسع كيلومترات ويعلوه 900برج ،ويسكنها 100ألف نسمة تقريبا ...،أنظر:عبد القادر وساط، موسوعة المعارف الحديثة–الحضارات 2- ،تر:محمد شكري ، منشورات عكاظ ، المغرب، 2001، ص120.

[2] سمير الطائي ،العنف السياسي في بلاد الرافدين "دراسة تاريخية في جذوره التاريخية ، دار الدجلة ، عمان ،2009، ص40.

[3] Daniel Arnaud ,le proche orient ancien de l’invention de l’écriture, collection Etude Supérieure, Bordas, France, 1970 ,p8.

[4] George Roux, ancien Iraq , third éditions , Penguim books , Iran , 2000,p131, Jane .R. Maintosh, ancien Mésopotamie , ABC –chio , Santa Barbara , New-york , 2005 ,p71.

[5] John Haywood ,les civilisation antiques du proche -orient et la méditerrané , tra : Dédier pemerle – larousse ,Paris ,2000 ,p24.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

2-أ)العوامل الطبيعية :كان لطبيعة البلاد الجغرافية وطبيعة بيئتها ،الأثر الفعّال في نشوء أنظمة الحكم وأسلوب تطورها من الأنظمة البدائية إلى نظام دويلات المدن ، فنظام القطر الواحد الذي تكرس منذ أواسط الألف الثالثة قبل الميلاد في عهد الدولة الأكادية [1] ،ويلاحظ أن أولى أنظمة الحكم ،وأولى الحضارات الناضجة لم تزدهر في الشمال بل في القسم الجنوبي من العراق ،ففي القسم الشمالي كانت مستوطنات الإنسان زراعية بالدرجة الأولى ،وعلى صيد الحيوانات وجمع النباتات البرّية ،واعتمدت زراعتها على أمطار المنطقة الغزيرة ،وفي نفس الوقت مؤمنة من أخطار الفيضانات المدمرة بسبب بعد مستوطناتها عن وديان الأنهار، ولهذا كانت الجهود المبذولة من طرف الإنسان لا تستدعي توحيد الجماعات وتكثيف الجهود ، وتنظيمها للقيام بمشاريع الري الضخمة والاكتفاء فقط بإنتاج القوت ، ولذلك ظلت المستوطنات الواقعة في القسم الشمالي صغيرة ومحدودة ومكتفية بما لديها من أراض ومياه وقوة...[2] ،أما في القسم الجنوبي من البلاد كانت المنطقة ذات تربة خصبة ومياه وفيرة لكن طبيعة المنطقة قاسية جدا ،حيث تتكرر الفيضانات في مواسم غير مناسبة للزراعة ،فتغمر سهولها الواسعة تاركة وراءها طبقة سميكة من الطمي والغرين اللذين يزيدان من خصوبة تربتها، وهو ما يستدعي تكثيف جهود سكانها للتصدي لمخاطرها من خلال أعمال تجفيف الأراضي ،وشق القنوات لتأمين إيصال المياه إلى الأراضي الزراعية وغيرها .

-تميزت منطقة وادي الرافدين ومنطقة الأهوار* بصعوبة الحياة بسبب حرارة الجو الخانقة ،ونسبة الملوحة الناجمة عن تجفيف الأراضي و التبخر السريع للمياه بعد الفيضان ،أو بسبب ارتفاع المياه الجوفية والمحتوية على نسبة عالية من الأملاح التي تصعد إلى السطح لتغطي الأراضي بالأملاح البلورية البيضاء التي تؤثر سلبا على المنتوج الزراعي [3].

- انقسام المنطقة الجنوبية من العراق جغرافيا إلى عدة أجزاء تفصل بينها الأنهار و الأهوار والمستنقعات بسبب تعدد الموارد المائية التي اعتبرت منذ القدم أساس قيام المدن وتطورها ،وظهور إدارات مركزية واحدة في المنطقة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد خاصة بعد اهتمام ملوكها بمشاريع الري

---

[1] عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد (مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام 323ق.م) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1969،ص245.

[2] طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج2، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، 1980 ، ص46.

*الأهوار :(ج.م/هور):البحيرة التي تصب فيها مياه الأمطار والجبال ،وتتسع مع مرور الزمن ...

[3] سمير الطائي ،المرجع السابق ،ص31.

وتفاخرهم بقيامهم بها ،واعتبروا ذلك من واجباتهم الدينية والدنيوية ،وأرخوا للسنين بمثل هذه الأحداث.[1]

-إدراك الإنسان الرافدي القديم لفكرة الاستقرار الدائم في بيوت ثابتة مبنية من الطوب بدلا من بناء الأكواخ المكونة من الأعشاب الجافة والسريعة التلف والخراب والتي يمكن بناءها في وقت ضيق وتنهار بشكل أسرع، لكن بعد اكتشافه لأسرار السكن الآمن من جميع المخاطر الطبيعية من خلال تنظيف مجاري المياه وإقامة السدود والزراعة المروية والقائمة على تجفيف الأرض وريها بواسطة الجهد الإنساني عن طريق إيصاله للمياه اللازمة للأرض المزروعة ،وبالتالي الاستفادة من الظروف الطبيعية ووضعها في خدمته ليكون له التقدم والتحضر. [2]

-صقل مواهب أولئك الأقوام السومرية وعقولهم ، وإيجاد حركة فكرية عنيفة أدت إلى تقدمهم في مضمار الحضارة والثقافة ،وإلى إيجاد نظام سياسي ملائم لظروفهم الطبيعية والسياسية ،فحياة السهول والأنهار كانت تعرض الناس لهجمات الحيوانات المفترسة واعتداءات الجماعات البشرية المجاورة .

فالظروف الأمنية أوجبت على القاطنين بسومر على العيش في المنازل وتشييد المدن وتقسيم الأعمال فيما بينهم لسد حاجياتهم التي أخذت تتعدد وتتنوع ،كما استوجب وجود نظام اجتماعي متطور ،يتضمن التشكيلات السياسية الحكومية والأعراف والقوانين لحفظ النظام في المدن .[3]

2-ب) العوامل السياسية :

-ظهور الديمقراطية البدائية لأول مرة في سومر –المهد الأول- ،ويعود لهذه السياسة الفضل في تشكل المدينة السومرية في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد وتطورها ،حيث عقد لأول مرة برلمان سياسي يتألف من مجلسين :مجلس الأعيان(شيوخ المدينة أو المسنين)،ومجلس الأحرار (العموم أو النواب) ، ويجتمع المجلسان للإشراف على أمور المدينة من اتخاذ القرارات الضرورية في الحالات الطارئة والظروف التي نحتاج إلى قرار حاسم [4].

---

[1] محمود شاكر ،المرجع السابق ،ص 16.

[2] عمر محمد صبحي عبد الحي ،الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم ، بلاد مابين النهرين ومصر القديمة ، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ،بيروت ، 1998،ص119Daniel Arnaud ,op-cit, p
p 5-6,

[3] ايج .اي .ايل. ملرش ، قصة الحضارة في سومر وبابل ،تر: عطا البكري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، 1971 ، ص 5.

[4] صامويل نوح كريمر ،من ألواح سومر ، تر: طه باقر ، تقديم ومراجعة أحمد فخري ، مكتبة المثنى ، بغداد، ص 91.

-النزاع وعدم الاستقرار بين التجمعات السكنية البدائية (القرى) ،حيث كانت في حالة حروب ونزاع مستمر بعضها مع البعض الآخر بهدف الاستيلاء على أكبر جزء من الأراضي والسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى مواد الخام .

وتشير الدراسات التاريخية إلى قيام محاولات عديدة لتشكيل أولى الإدارات المركزية ،وضم أكبر عدد ممكن من القرى والتجمعات السكنية وصهرها تحت لواء المدينة الواحدة ،ولم تتحقق هذه الوحدة السياسية إلى غاية الألف الثالثة قبل الميلاد .[1]

-انفتاح المنطقة الجنوبية من العراق على الأقوام الغازية من الشرق والغرب والشمال ما أدى إلى تعرضها إلى هجمات تلك الأقوام الوافدة ،وإلى اختلاط السومريين مع أناس يختلفون عنهم في الطباع والعادات ،وما يتبع ذلك من عنف وتدمير وتبدل في التكوين الاجتماعي ،السياسي ...،حتى أن ذلك لم يمنع من تدمير بعض المدن بأكملها ،ولم يبق منها سوى الآثار المكتشفة مثل: المعاويل،الفؤوس..،وبذلك يقول لي أوينهام في كتابه "بلاد مابين النهرين" :"أننا نعرف بأن جميع مدن ما بين النهرين الكبيرة والصغيرة قد دمرت لمرات عديدة بواسطة الحروب".[2]

-دور الرق في ظهور الدولة المدينة ،ونضجع أكثر في بلاد الرافدين علما أن السوريين كانوا أول الشعوب التي جعلت للرق نظاما رسميا ،حيث كانت الغالبية العظمى من الأرقاء من أسرى الحرب وأرقاء الديون ...تستغل في الأعمال الشاقة التي تتطلب الإنجاز السريع بعد إدراكهم أن العدو يمكن الانتفاع منه حيا بدلا من قتله والاستفادة من هذه الطبقة في تطوير مدنهم في جميع النواحي .[3]

-وضع المنطقة سياسيا ودور بعض القرى المنيعة والمحصنة في جلب السكان المجاورين تحت لوائها ، وتقديم الحماية لهم ضد الطامعين في ثرواتهم ،وبواسطة هذه الطريقة تحولت العديد من القرى المنيعة إلى مدن ذات سكان أكثر عددا وتنوعا ، وبقائها ومحافظة على هذا التميز حتى بعد زوال الخطر من خلال الاحتفاظ بقسم من المهاجرين الذين طلبوا المأوى والعيش الآمن .[4]

---

[1] محمود شاكر ، المرجع السابق ، ص41.

[2] سمير الطائي ، المرجع السابق ، ص33.

[3] رالف لنتون ، شجرة الحضارة ، تقديم محمد سويدي ، ج2، موفم للنشر ، الجزائر ، 1990، ص ص282-283.

[4] عبد الرزاق عباس حسين ، نشأة مدن العراق وتطورها ، المطبعة الفنية الحديثة ، بغداد ، 1973، ص10.

*ساد لدى السومريين القدامى معتقد قديم أن المدن التي تتخلى عنها الآلهة تكون معرضة لهجمات الأعداء و عرضة لأشكال المصائب والخراب بسبب عدم رضا الآلهة دمرت العديد من

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

2-ج)العوامل الدينية :

-دور الكهنة في صقل معتقدات سكان العراق القدامى بأنهم الرجال القائمين على خدمة الآلهة في الأرض (تنفيذ أوامرها وقراراتها)،وأنهم الوسطاء بينهم وبين الآلهة والممثلين لهم على الأرض ،خاصة وأن القسم الجنوبي من البلاد كان يعاني من اضطراب في الظواهر الطبيعية (الفيضانات ،العواصف...).

وحسب طه باقر أن أول الحكام وأول من قام بتنظيم الجهود وتسخيرها هم من طبقة الكهنة الذين أطلق عليهم اسم "اين"،وقد سارعت الأقوام السومرية على تكثيف جهودها ،وإنشاء المدن ومنح أمورها للكهنة بغية الحصول على الأمن والاستقرار والحصانة الإلهية* [1] .

-دور المعابد في تماسك المجتمعات سياسيا ،حيث شيدت هذه البنايات الضخمة لتوطيد الرابطة مع القوة التي تعتمد عليها المدينة ،فهي لن تعلن عن عظمة الآلهة وجبروتها وحسب وإنما حتى على قدرة المجتمع في بذل الجهود ضخمة .

وقد كانت هذه الهياكل الدينية شاهدة على التقوى وموضع فخر وتباه بين الأقوام السومرية ،فإلى جانب كونها قد أنشئت لتأمين الحماية المقدسة للمدينة ،فإنها أيضا شيدت تعظيما لمعنى المدنية و المواطنة.

-إثبات وتأكيد أهمية وفاعلية الديانة السومرية بين جميع الديانات الأخرى ،ومدى قدرتها على حماية المستوطنات الأولى من الظواهر الطبيعية المهددة من فيضان نهري الدجلة والفرات ،وتقديسها للحياة السياسية السومرية .[2]

2-د) العوامل الاقتصادية :

-ظهور الزراعة البدائية في بلاد العراق القديم[3] ،والتي شكلت أولى المرتكزات المادية للاستقرار الاجتماعي في ظل بوادر نشأة المجتمعات البشرية وإمكانية تطورها ، فالقرية المحتوية على عدد قليل من الخيام في المرحلة الأولى ثم على بيوت جدرانها من اللبن أو من الطين مع معرفة أكبر لتقنيات الزراعة والري.

ومن هذه القرى البدائية بدأ الإنسان يتقدم في الوعي والإدراك والمعرفة بالمحيط الطبيعي والاجتماعي ،وربط علاقات مع المجتمعات المجاورة ،خاصة وأن العمل الزراعي في السهول يتطلب تكثيف الجهود وتوحيد العمل لجعل الأرض صالحة للزراعة وتأمين ريها ،وكان لهذه الجهود المبذولة

المدن بأكملها أو انتقاما من حكامها الذين خالفوا أوامرها ...،أنظر: سمير الطائي ، المرجع السابق ، ص42.

[1] طه باقر ،المرجع السابق ، ص47.

[2] John Haywood ,op-cit, p24.

[3] Daniel Arnaud ,op-cit,p 7, John Haywood ,op-cit, p24.

الفضل في تطويع العناصر الطبيعية المختلفة ،ونمو المجتمعات العراقية القديمة ،ومن ثم ظهور القرى الكبيرة ،فالمدن التي أصبحت المركز أو المحور الرئيسي الذي تدور حوله الدويلات المدن منذ الألف الثالثة قبل الميلاد مثل:أور،لجش، الوركاء..ولذلك كان يطلق عليها مصطلح "المدن الزراعية"[1].

-اكتشاف حبة الشعير والقمح في بلاد الرافدين ،واعتبر هذا الاكتشاف طفرة كبيرة في حياة البشرية نظرا للدور الفعّال الذي لعبه في استقرار ذهن الإنسان وتكوينه للمجتمعات المدنية الصغيرة ،والتي تعرف بالدولة المدينة ،وما تستدعيه هذه الحبة من قابلية الخزن لمدة طويلة دون الحاجة للتنقل ،وترك مكان العيش يوميا ، وبالتالي استطاع الإنسان الرافدي من خلال هذا الاكتشاف أن يستقر ويفكر بتنظيم من العشائر ،ومن ثمة المدن[2]

-صعوبة المواصلات والتنقل في الفترات الأولى بسبب التنوع الجغرافي للمنطقة (الأقاليم التضاريسية ،الأنهار ،الروافد ..) أن سهلت في ظهور عدة مراكز إدارية ونمو المدن الكبيرة المستقلة ،حيث كانت كل مدينة من تلك المدن تتبعها عدد من القرى والأرياف القريبة ومكتفية ذاتيا ومعتمدة ذاتيا على موردها المائي وخصوبة تربتها وجهود سكانها المنظمة في ذلك[3]

-غنى المنطقة بالغضار(الصلصال) الذي استخدم في بناء المساكن الأولى ، وإنشاء آكام تعلو مستوى الماء لدرء الفيضان ،وهو ما ساعد على بروز ملامح المدن البدائية خاصة على ضفاف الأنهار ،وشكلت هذه المدن السباقة بإيجاد التنظيم السياسي المتماسك للمجتمع وبداية التطور الحضاري .[4]

-ازدياد نسبة الإنتاج لتحسن وسائل الري ونمو القوى المنتجة ،وتفسخ القوى المشاعية العشيرية إلى أسرات فلاحية كبيرة وصغيرة ،وظهور الملكية الخاصة ،وتشكل الطبقات الاجتماعية خاصة بعد الزيادة السكانية وحلول الأسرة الأبوية محل الأسرة الأموية ،وهي عوامل ساعدت على ظهور الدولة المدينة التي تأسست لتثبيت سلطة ملاك العبيد والأراضي من النبلاء والأشراف في ظل اختراع الكتابة (الرمزية ثم التصويرية) التي أصبحت تسجل الاتفاقيات والقوانين والوصايا والصفقات التجارية...[5]

---

[1] عمر محمد صبحي عبد الحي ، المرجع السابق ،ص ص 42،117،حميد رشيد عبد الوهاب ،حضارة وادي الرافدين "ميزوبوتاميا " ، ط1، دار المدى ، بغداد ، 2004 ،ص 107.

[2] سمير الطائي، المرجع السابق ،ص 17.

[3] فاضل عبد الواحد علي وآخرون، تاريخ العراق القديم ،ج2، مطبعة بغداد الجامعية ، بغداد ، 1980 ، ص48.

[4] John Haywood ,op-cit, p24.

[5] برهان الدين دلوو ،حضارة مصر والعراق "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ، ط1، دار الفارسي ، بيروت ، 1989 ، ص 190، هربرت جورج ولز ،معالم تاريخ

3-النشأة التاريخية للدولة المدينة :يشكل الوعي السياسي السومري محطة هامة في تاريخ الإنسانية بسبب النضوج الحضاري والفكري الذي مهد بظهور معالم سياسية راقية تتماشى والبيئة الجغرافية ،وأمام هذه المعطيات لابد من الوقوف على البوادر الأولى للدولة المدينة وتقديم الآراء التاريخية في سبيل تفسير هذه النشأة:

3-أ) دولة المعبد:تشير الأبحاث التاريخية أن أولى المدن السومرية نشأت أو لما نشأت حول المعابد وأنها

كانت قائمة على أساس ديني(ثيوقراطي) ،ومن المؤسسة الدينية انبثق النظام الملكي، ومن ثمة أطلق عليه مصطلح "دولة المعبد"[1]،وعلى هذا الأساس كانت ثقة الناس في العهود الأولى منصبة على الرجال القائمين على خدمة الآلهة –طبقة الكهنة-الذين كانوا الوسطاء بينهم وبين الآلهة ،والممثلين لهم على الأرض ،فالآلهة حسب معتقدهم الديني عبارة عن قوة خارقة خالدة ، ومصدر لكل شيء محرك للأحداث التي يعيشها الإنسان ،وأن ما يلحق المدينة سواء اضطراب طبيعي أو حروب خارجية سببه غضب وانتقام الآلهة ،وبالتالي حرص القوم على إرضائها وتحاشي غضبها المؤدي إلى إنزال الشرور والمآسي[2] .

يذكر توينبي أن العامل الديني كان وراء نجاح السومريين في شق غرين الدجلة والفرات وتطويع المستنقعات بسبب إيمانهم بأن السلطة البشرية تجد الدعم من القوى الغيبية بدليل قيام المدن حول مراكز العبادة ،فإلى جانب وظائفها الدينية كانت بمثابة المركز السياسي الذي تدار منه الوظائف المدنية والإدارية[3].

يعتبر المعبد* في الأصل الأرضية الاجتماعية والاقتصادية ،والمنظمة السياسية في ممالك دويلات المدن ،وفي وقت من الأوقات كان الدولة بذاتها

العالم ، تر: عبد العزيز توفيق ، مراجعة محمد مأمون نجا ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1963André Parrot ,Sumer ,édition Gallimard , France ,pp 93-94 ، ص62،

[1]Samuel Noah Kramer ,the sumériens , the university of Chicago ,Américain , 1963,p75.

[2] طه باقر ، المرجع السابق ، ص47.

[3] آرنولد توينبي ، تاريخ البشرية ، تر:نقولا زيادة ، ج1، الأهلية للنشر والتوزيع ،بيروت ، 1981، ص ص 93-94.

*عادة ما كان المعبد يقام فوق مصطبة عالية ومخصصا لإله المدينة الخاص ،وفي وسط المعبد برج عال يعرف بالزاقورة ،وفي القاعة أو الباحة المركزية من المعبد يوجد تمثال الإله ومذبح وطاولة النذور والأضاحي ، وحول الحرم أروقة تضم غرف الكهنة مع تزيين جدرانه الخارجية المبنية من الطين بالصور المختلفة،وقد بلغ عدد المعابد مثلا في مدينة الوركاء ستة عشر وعبدا،وفي لجش ما لا يقل عن عشين معبدا..،أنظر: عبد المنعم أبو بكر،حضارة مصر والشرق القديم ،دار مصر للطباعة ،القاهرة ، ص274،André Parrot ,op-cit ,p 98 .

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

،وهو من أبرز معالم المدينة السومرية ونواة حضارتها ،والمركز السياسي فيها ويتوسطها ويحيط به الأسوار الضخمة التي تفصله عن باقي أجزائها[1]،ولذا كان كهنة المعبد أول وأقدم الحكام في المجتمعات السومرية المتحضرة ،حيث كان الكاهن الأعلى "اين" حاكم المجتمع المعبدي يجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية بتوليه الشؤون الإدارية العامة إضافة إلى واجباته الدينية ،وكان يعيش في جناح خاص في حرم المعبد يسمى "إجيبار"أو"جيبار".

3-ب) دولة القصر :لقد رافق التطور الحاصل في الدويلات السومرية من ناحية نظمها وتقاليدها وقوانينها وسلالتها الحاكمة تطورا في نظم الحكم ،حيث لم يعد الكاهن"اين" قادرا على إدارة شؤون المدينة الدينية والدنيوية في آن واحد خاصة بعدما تعقدت الحياة وزادت من متطلبات الناس فانتقل إلى قصر خاص مستقل عن المعبد ،ولقب نفسه بلقب انسي (بالأكادية ايشاكو) ،والذي يعني وكيل الإله أو الفلاح المستأجر،وأصبح اهتمامه الأول بالشؤون الدنيوية وإدارة البلاد ،وحل مشاكل الناس[2]

ومع ولادة وظيفة الإنسي "الحاكم الزمني "بدأ الانفصال التدريجي السلطتين الدينية والدنيوية باتجاه إعادة توزيع السلطة بين القصر والمعبد لصالح الملك،لتمتد سلطة هذا الأخير بالهيمنة على شؤون دولته،حيث أصبح للحاكم قصره الخاص ،وبحوله فئة جديدة من الموظفين بغية إدارة شؤون الدولة [3].

وقد عزز مركز القصر أكثر ضعف حكومة الكهنة عن تلبية متطلبات الشعب السومري والأزمات الحادثة في ممالك دويلات المدن خاصة في فترات الحروب التي كانت قائمة بين المدن السومرية ،وحتى على المغيرين عليها من دول الجوار ،ولما كان الكهنة لا يستطيعون كسب الحرب أصبح القائد المنتصر الحكيم أصل الملكية في نظام الحكم ،وهو ما دفع الناس لجعله حاكما ثم ملكا ،وأطلق عليه لقب الرجل العظيم "لوكال" أو الرجل الكبير ،واكتسب هالة من القدسية [4]

وقد كان استخدام هذا اللقب في البداية محدود ،فلا يلقب الحاكم نفسه به إلا إذا امتدت سلطته إلى بعض المدن المجاورة ،ولا سيما مدينة نيبور (نفر) المقدسة

---

[1] جيمس هنري برستد ،انتصار الحضارة "تاريخ الشرق القديم " ، تر: أحمد فخري ، مكتبة أنجلو المصرية ، القاهرة ، 1969 ،ص 164 ، Jean Pièrre Grégoire , archives admistratives summériennes, Librairie Orientaliste PAUL G euthner, Paris , 1970,XV.

[2] طه باقر ،المرجع السابق ،ص47.

[3] عبد الوهاب حميد رشيد ،المرجع السابق ،ص 212.

[4] عبد الحكيم الذنون ، الذاكرة الأولى "دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين ، ط2، دار المعرفة ، دمشق ، 1993، ص35.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

،ثم شاع استخدامه ،وأصبح اللقب الرئيسي لحكام الدويلات السومرية ،في حين صار لقب الإنسي لا يطلق إلا للإشارة إلى صفة الملك الدينية المقدسة وإلى علاقته بالآلهة [1]،وإذا كان المعبد بيت الرب فإن القصر بيت الملك ،وكلاهما على قدر كبير من الأهمية لدى السومريين،وكشفت التنقيبات الأثرية عن بعض القصور مثل:قصر مدينة كيش ، أريدو..[2]

4-نزول الملكية (السلطة):اعتقد العراقيون القدامى بأن الآلهة أوجدت الكثير من المفاهيم والأنظمة ،وأن الملكية من بينها ،فبعد أن أتمت الآلهة خلق الإنسان أصبح من الضروري تعليمه هذه المفاهيم والمظاهر الحضارية المختلفة ،ولهذا اتخذ مظهر الملكية العراقية الأول ثيوقراطيا أي دينيا[3]،كما اعتقدوا بأن الملكية كانت قابعة في السماء وتمارس من قبل الآلهة ،حيث كانت شاراتها موضوعة عند دكة عرش الإله آنو ثم نزلت على الأرض، واعتبرت إحدى الهبات التي منحتها الآلهة لتمكنهم من القيام بواجباتهم اتجاه البشر[4]، ويتضح ذلك غي قائمة الملوك السومرية التي تنص على نزول الملكية من السماء،ويقول النص :

في ذلك الوقت لم يكن قد لبس تاج...

وكان الصولجان ورباط الرأس والتاج والعصا مودعة في السماء أمام آنو..

ثم هبطت الملكية من السماء...[5]

وقد اعتبر الإله آنو النموذج الأول لكل الحكام ،فهو الملك والحاكم الأقدم ، ومالك الشارات التي ترمز إلى جوهر الملك كالصولجان والتاج ورباط الرأس وعصا الراعي ..[6]،وقد عزز الاعتقاد بنزول الملكية من السماء هذا النص الذي يقول : "أن البشر لم يكن يحكمهم ملك ،وفي ذلك الوقت لم تكن هناك شارات الملك ولا تاج ..الصولجان والتاج وعصا (الراعي) عند الإله آنو من السماء ،وحينئذ نزلت الملكية من السماء.."[7].

[1] طه باقر ،المرجع السابق ،ص ص 48-49.

[2] George Roux ,la mésopotamie,éditions du Seuil ,Paris, 1995 ,p161, André Parrot ,op-cit ,p100.

[3] فاضل عبد الواحد علي ،ثم جاء الطوفان ،مجلة سومر ،المجلد 31، ج1+ج2، بغداد ، 1975، ص4،Samuel Noah Kramer, the sumérien ,op-cit, p75.

[4] هنري فرانكفورت ،فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، تر: ميخائيل خوري ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1950 ، ص69.

[5] طه باقر ، المرجع السابق ، ص55.

[6] ثوركليد جاكوبسين ،ما قبل الفلسفة "الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى" ،تر:إبراهيم جبرا، مراجعة محمد الأمين ،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد ، 1960، ص 162.

[7] خزعل الماجدي، متون سومر "التاريخ ،الميثولوجيا ، اللاهوت ، الطقوس "، ط1، دار الأهلية ،لبنان ، 1998، ص 42.

ونزلت الملكية لأول مرة في مدينة أريدو ،وحكم ثمانية ملوك مدة ربع مليون سنة قبل الطوفان ،ولكنها نزلت فيما بعد في مدينة كيش ،وتوالى على الحكم ثلاثة وعشرين سلالة في مدة إجمالية تصل إلى 24510سنة ،وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ونصف[1]، وحسب هذا الاعتقاد عمل السومريين على أن تكون حياتهم السياسية تسير وفق نمط مماثل لتنظيم الآلهة ،لأن حياتهم السياسية ما هي إلا صورة مماثلة عن تلك الحياة التي يحياها الأرباب في السماء ،ولا يمكن تنفيذ أمر دون موافقة مجلس الآلهة [2].

ولذلك فإن الحكام السومريون كانوا يجسدون الآلهة عبر مفهوم التفويض الإلهي أو الاختيار الإلهي* في إدارة شؤون البلاد مثلما ورد في نص سومري قديم للملك أوروكاجينا الذي تعاقد فيه مع الإله ننجرسو –إله مدينة لجش – للقيام بإصلاحات اجتماعية ،وأنه وصل إلى السلطة عن طريق الاختيار الإلهي [3].

4-نظم الحكم في الدولة المدينة : إن التنظيم السياسي لحكومة المدينة السومرية يمثل مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني ،لأنه يشهد بتواجد التفكير الديمقراطي في بداية العصر التاريخي بعدما انتقل الحكم من النظام الديمقراطي البدائي إلى النظام الملكي أوتوقراطي(فردية الحكم) [4]،وقد تميز بصبغته الوراثية إلا في بعض الحالات أين يتم فيها اغتصاب العرش من قبل أفراد الأسرة الحاكمة مع تأكيد شرعيته وفق مبدأ الاختيار الإلهي[5] ،ويستند أساسا على :

4-1) الملك:كان الملك على رأس الدولة وكاهنها الأعلى ،والمحارب الأول الذي يحكم حكما فرديا (أوتوقراطيا) ،وفي يده مختلف السلطات وله مطلق التصرف في كافة الشؤون وكلما اتسع سلطانه زادت سلطته[6]، فضلا على انه ممثل الآلهة على الأرض وقائد الجيش الأعلى ورأس السياسة ومنظم الإدارة ،له سلطات واسعة لكن عليه واجبات كثيرة وقي طليعتها تأدية الواجب الديني

---

[1] أحمد عبد الحليم الدراز،تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم ، دار التعليم الجامعي ، الإسكندرية ، 2010 ، ص 105، سامي ريحانا ، المرجع السابق ، ص 64.

[2] سامي سعيد الأحمد،السومريون وتراثهم الحضاري ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، 1985 ، ص 120.

*التفويض الإلهي أو الاختيار الإلهي :حسب معتقدات السومريين تقوم الآلهة باختيار الملوك وتفويضهم عنها في إدارة شؤون البلاد عن طريق النظرة الإلهية التي يلقيها الإله على ملك المستقبل ،فإذا رفع الإله بصره نحو ملك المستقبل ،فإن ذلك يعد دليلا على تفضيله له للممارسة السلطة على الأرض ،أو يتم التلفظ باسمه ضمن طقوس دينية معينة...، أنظر: عبد الرضا الطعان ،ص 431.

[3] عمر محمد صبحي عبد الحي ،المرجع السابق ، ص149.

[4] Samual Noah Kramer ,the sumérien ,op-cit, p72.

[5] فون زودن، مدخل إلى حضارات الشرق القديم ، تر: فاروق إسماعيل ، ط1، دار الهدى ، دمشق ، 2003 ،ص 73.

[6] نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم "حضارة العراق القديم " ، ج6، ط1، دار المعارف ، مصر ، 1961،ص 24.

من ترأس الحفلات الدينية وتقديم الذبائح وبناء المعابد ،وعليه في كل أعماله الإصغاء إلى صوت الآلهة فهي توحي عليه رغبتها عن طريق تفسير الأحلام واستفسار أقوال العرافين أو بالتنجيم والسحر[1]،وكان يخلفه أحد أولاده خاصة البكر منهم(ولي العهد) ،أو حتى الابن الأصغر أو أخاه ،ويتم ذلك بعد استشارة الآلهة عن طريق الكهنة ،والتي تشير إلى مثل هذا الأمر بواسطة الرؤيا أو الفأل أو بعلامات سماوية أو أرضية يفسرها الكهنة [2]

2-4)الألقاب الملكية: تطورت الألقاب الملكية منذ أقدم العصور بتطور الحكم واتساعه والاتجاه نحو المركزية ،ونحو دولة القطر الواحد،وعادة ما شكلت هذه الألقاب الملكية مصدرا هاما لمعرفة ما كانوا يتمتعون به حقا ،وما كانوا يدّعون الحق فيه ، كما لوحظ عليها الطابع الدنيوي الخالص[3]، ولعّل من أقدم الألقاب الملكية:

أ)اين: يعتبر هذا اللقب من أقدم الألقاب التي أطلقت على الحكام في بلاد الرافدين ويعني السيد [4]، وله مدلول ديني بسبب أن أول الحكام الذين تولوا الإدارات كانوا من طبقة الكهنة استرضاء للآلهة تجنبا لغضبها ونقمتها فضلا عن الجناح الخاص الملاصق للمعبد المسمى "آكيبار" أو" كيبار" والذي اتخذ مسكنا لهؤلاء الحكام ،ولكن هذا اللقب قد تطور في المراحل الأخيرة بانتقال مركزه من المعبد إلى القصر[5].

ب) إنسي / باتيزي :(ايشاكو بالأكدية) :أطلق هذا اللقب على الحكام السومريين بعد انفصال القصر عن المعبد وابتعاده عن الأمور الدينية ،ويعني "النائب"أو "وكيل الإله" أو "الخادم"[6]، ويعني أيضا "الفلاح المستأجر[7] أو "أمير المدينة "[8]،ويدل هذا اللقب على وكالته عن معبود مدينته في حكم المدينة ومسؤوليته عن الشؤون الزراعية وما تتطلبه من مشاريع تتصل بعمليات الري،ومع هذا ظل يمثل الإلهة على الأرض ، ويلعب دورا مهما في الشؤون الدينية [9].

---

1 وهيب أبي فاضل ،موسوعة عالم التاريخ والحضارة "حضارة العالم القديم " ،ج8، ط1، دار نوبليس ، لبنان ، 2003، ص 144.

2 أحمد أمين سليم ، حضارة العراق القديم ، ج2، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2001، ص200.

3 فون زودن ، المرجع السابق ، ص76.

4 George Roux ,la mésopotamie ,op-cit ,p160.

5 عامر سليمان واحمد مالك الفتيان ،المرجع السابق ،ص 83.

6 توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة من أقدم العصور إلى عام 1190ق.م ، (الشرق الأدنى القديم ، بلاد ما بين النهرين ، بلاد الشام) ، ط1، دار دمشق ، 1985 ، ص 99.

7 طه باقر ، المرجع السابق ،ص 57.

8 فون زودن ، المرجع السابق ، ص74.

9 رشيد الناضوري ، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا ، مرحلة التكوين والتشكيل الحضاري والسياسي من العصر الحجري الحديث حتى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، دار النهضة العربية ، بيروت ،1988 ،ص253.

ج)لوكال أو لوجال :يعني هذا اللقب "الرجل العظيم أو الكبير" ،أو "المدير" بمعنى رأس العيلة أو السيد الأعظم [1]،ويترجم عادة بمصطلح الملك أو الحاكم ،وقد طغى على اللقب القديم "إنسي" بسبب الأوضاع العامة في بلاد سومر،والتي تطلبت اختيار أحد الأشخاص الأقوياء الذين اتصفوا بصفات القادة لتولي إدارة شؤون المدينة وقت الطوارئ والأزمات خاصة في حالة الهجوم المفاجئ أو حدوث كوارث طبيعية التي تحتاج إلى اتخاذ قرارات آنية وحاسمة ،وأمام هذه الظروف ما كان على الإنسي ومجلس الشيوخ إلا اختيار الرجل المناسب لتولي هذه المهمة ،لكن هذا الأخير استغل سلطة نفوذه ليضيف شرعية لحكمه ،وادعى بأنه منتخب من قبل الآلهة وليس من البشر[2].

د) لوجال كالاما(ملك البلاد) :ظهر هذا اللقب في أواخر عصر فجر السلالات وبعد انهيار نظام دولة المعبد تحت ضربات الملكية المنتصرة بدأ الاتجاه نحو القطر الدولة الموحدة التي تضم أكثر من دويلة سومرية واحدة،وأول من استعمل هذا اللقب هو الملك "لوكال زاجيري" –ملك مدينة أوما- الذي نجح في توحيد معظم المدن السومرية ،واعتبر نفسه ملكا على سومر.[3]

3-4)برلمان بلاد سومر:قامت السلطة السياسية على أساس الجمعية العمومية التي تتولى مهمة الإشراف على المسائل العامة والاجتماع وقت الحاجة للنظر والفصل في الموضوعات التي تهم المدينة بأسرها على أساس:

أ)مجلس الشيوخ(مجلس الشورى) :يتكون هذا المجلس من أعيان المدينة وملاكيها الكبار،ويعتبر أول مجلس ديمقراطي انعقد في التاريخ بسبب الظروف السياسية في تلك الفترة ،أين كان الصراع بين المدن السومرية من أجل القيادة والسيطرة على الأراضي الزراعية ومصادر المياه ،حيث نشب النزاع بين مدينتي كيش (بزعامة ملكها آجا)و الوركاء(بزعامة ملكها جلجامش) ،فانعقد المجلس الوطني في الوركاء وطلب السلام بأي ثمن ولو بفقدان الاستقلال والاستسلام ،فرفض جلجامش هذا الاقتراح[4].

ومن مهامه تطبيق العدالة واتخاذ التدابير الإدارية ،والمناقشة مع حاكم المدينة في المسائل السياسية الأساسية كإعلان الحرب والسلم ...،ومن اختصاصاته أيضا الإشراف القضائي والنظر في التشريعات والدعاوي المهمة مثل توقيع عقوبة الإعدام وتنفيذها....[5]

---

[1] جماعة من علماء الآثار السوفيات ، العراق القديم (دراسة تحليلية لأحواله الاقتصادية والاجتماعية) ،تر:سليم طه التكريتي ، منشورات وزارة الإعلام ، بغداد ، 1976، ص276.

[2] عامر سليمان وأحمد مالك الفتيان ، المرجع السابق ، ص85.

[3] محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم "تاريخ العراق القديم" ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 1990،ص 71.

[4] Samuel Noah Kramer,L'histoire commence à Sumer ,libraire Arthaud , Paris , 1975 ,p61.

[5] ف.ديكانوف ، س. كوفاليف ، الحضارات القديمة ، تر: نسيم واكيم اليازجي ، ج1، ط1، دار علاء الدين ، دمشق، 2000، ص88.

ب)مجلس الأحرار(مجلس العموم النواب):يتألف من المواطنين الذكور القادرين على حمل السلاح أي الشباب [1]،ومن جميع المواطنين في المدينة بما في ذلك النساء ،واعتبر بمثابة المؤتمر العام أو ما يشبه الجمعية العامة ،ويقوم بإرشاده مجلس الشيوخ[2]،وأطلق على هذا البرلمان لأول مرة "برلمان حرب"أو بما يسمى الديمقراطية العسكرية [3]،ويجتمع مع مجلس الشيوخ لاتخاذ القرارات في الأمور التي تهم المدينة بصورة عامة ،ولكل مواطن الحق في الكلام والمناقشة ،ومن بين القرارات التي يتخذانها إقرار الحرب أو السلم حيث ساند جلجامش في قراره بعدم الاستسلام وإعلان الحرب على كيش [4].

وكما سبق ذكرنا فإن ملوك العراق تمركزت بين أيديهم جميع السلطات التشريعية والتنفيذية و القضائية ..في حين يقتصر دور الأجهزة المساعدة من وزراء وموظفين على الناحية الاستشارية مثل :وزير المالية وأمين خزانة الملك وناظر الريّ ومسجل عقود البيع وحاجب القصر فضلا عن الموسيقيين وعمال البريد والسفراء...

[1] صامويل نوح كريمر، المصدر السابق ، ص82.

[2] عبد الحميد زايد ،المرجع السابق ، ص 164.

[3] نعيم فرح ،تاريخ الشرق الأدنى القديم "السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي"، دار الفكر ،دمشق، ص 21.

[4] محمد حرب فرزات وعيد مرعي ، دول وحضارات في الشرق العربي القديم "سومر وأكاد و بابل وآشور"، ط2، دار طلاس ، دمشق ، 1994 ، ص82.